وقفة على الفسطاط !

للأســـتاذ علي الطنطاوي

قرأت في مذكرات حضرة صاحب السمو الملكي الأمير محمد علي المطبوعة في مصر في ٩ ربيع الأول سنة ١٣٦٦ هـ أنه كان يتولى رياسة لجنة حفظ الآثار العربية ، فقررت اللجنة سنة ١٣٢٩ هـ (إصلاح جامع عمرو وتجديده اهتماماً به من جهة أنه أول مسجد أسس في الإسلام بمصر ، وأنه مشرق أنوار العلوم الإسلامية بمصر منذ القدم) ، ولئلا (نغلب بقلة الاكترات بمفاخرنا التاريخية) .

واهتم بذلك الأجانب ، وكتب إليه أساتذة كبار محبذين ومشجعين ؛ وكاد يتم الأمر لولا أن أكثر الأعضاء المسلمين في اللجنة غابوا عن الجلسة التي عينت لإتمام المشروع فصارت (الأغلبية) للأجانب .

قال الأمير : « فلما بدأت في تبادل الآراء مع الأعضاء في مسألة إصلاح الجامع ، قام هرتس باشا — مهندس الأوقاف إذ ذاك — وسألني : ما ذا تعملون في حيطان سور الجامع ؟ فقلت : حيث أن السور متهدم متخرب ، وأنه جدد مراراً ، ولم يبق له منظر جذاب ، نريد أن نعمل سوراً جيداً فخماً يتناسب واسم الجامع . فأظهر أسفه لهذا العمل ، وقال ، أننا إذن سنكسر ما فيه من طوب أحمر أثري ، وأن هذا خسارة لا تعوض ، لأنها آثار قديمة ستتلف بهذا العمل !

وبعد ذلك سأل مسيو ديمول الممثل الألماني لصندوق الدين قائلا : ما ذا تعملون في البوابة ؟

ثم سأل المستشرق السويسري بورك هارت : ما ذا تعملون في عمدان الجامع ؟

وبعد ذلك قام المسيو فارنال الممثل الإنكليزي لصندوق الدين وسأل : ما ذا تعملون في البوابة الكبيرة ؟ »

وذكر الأمير جوابه لكل منهم ، وهو جواب مقنع ، ولكن القوم لم يقتنعوا !

قال : « ثم زاد امتعاضي وقلت لجميع الجالسين : أما يندى جبينكم خجلا من هذا الوضع أيها الجماعة ؟ إن الدين الإسلامي لا يسمح لغير المسلم أن يتدخل في أمور مساجد الله ، والحكومة المصرية سمحت وتساهلت إلى حد أن تتدخلوا في شؤون نحو مائتين وخمسين مسجداً في مصر دون حق شرعي ، والمسلمون لما أرادوا تعظيم شأن جامع مَن أدخل الدين الإسلامي في بلادنا ، تحجمون وتوقفون عملنا ، وعلى هذا إني متنازل عن رياسة هذه اللجنة ... » . وتنازل الأمير ، ووقف العمل !

***

قرأت هذا ، فأحببت أن أزور الجامع ، ولم أكن زرته ، وهو قريب من الروضة حيث أقيم ، فسألت فوجدت أنه لا يصل إليه ترام ولا سيارة ، مع أن كل مكان في مصر (إلا هو) تمشي إليه سيارة أو ترام ، فذهبت أخوض في التراب ، في طرق مهملة ، ومسالك ممطلة ، حتى وصلت إلى الجامع ، وهو قائم كالشيخ المريض المدنف ، وسط المشش و (الفواخير) و (الجيارات) والجبانات !

قلت : أهذا هو جامع عمرو ؟ قالوا : نعم . قلت : وهذه هي (الفسطاط) ؟ قالوا : نعم !

الفسطاط ، أول بلدة للمسلمين في مصر ، يهملها المسلمون ، حتى تعود مقابر للنصارى ؟

الفسطاط ، منزل الفاتحين الذين نشروا في مصر حضارة الإسلام ، يمحى منها كل مظهر للحضارة ، فلا يكون فيها إلا (الفواخير والجيارات) ، وتذهب منها معالم الحياة ، فلا تكون إلا داراً للموتى ؟

هل يدري هؤلاء الذين يروحون ويغدون على هذه البقعة المتروكة ، وهل يدري أولئك الذين لم يزوروها ولم يروها أنه من هنا سطع النور الذي أضاء مصر بضوء الإسلام ، ومن هنا انبجس المعين الذي روى العطاش من أبناء مصر وإفريقية ، ومن هنا مشت الراية الإسلامية حتى رفرفت على نصف دنيا الماضي من البحر الأحمر إلى ما وراء البيرنة ، ومن هنا خرج الصوت الذي ألغى نظام الطبقات ، وساوى بين الناس في مصر ، وأعطاهم الحرية في دينهم ودنياهم ، وأنها هنا ولدت مصر زعيمة العروبة

ومثابة الإسلام ؟ فمن الذى كاد لهذه البقعة الطاهرة حتى صارت أوحش بقعة فى مصر وأحطها وأبعدها عن الحضارة والنظافة والبهاء ؟ ما الذى صرف الناس عنها ، فلا يؤمها مصرى ليذكر مشرق شمس الهداية منها على بلاده ، ولا يستطيع أن يصل إليها سائح ليرى فيها آثار أمجد ذكرى فى تاريخ مصر ؟ أيتخرب المسجد ويهمل الحصن ولا تشفع لهما روعة البطولة ، ولا خشعة الإيمان ، ولا عظمة العلم ؟ !

أما والله الذى لا إله إلا هو ، لو كانت هذه الآثار لغيرنا ، لأمة تحس وتشعر وتقدر أمجادها ، لجعلت بقاعها كلها كعبات يحج إليها ، ومنابر تتلو على الناس سور البطولة فيصغى إليها الناس كأنها القرآن ، ولخلدت كل مكان مرّ منه عمرو ، وكل طريق سلكه ، وكل قلعة افتتحها ، من العريش إلى الفرما إلى أم دُنين (قرب حديقة الأزبكية) ، إلى ساحة المعركة فى عين شمس ، إلى ميدان الوقعة الكبرى ، التى كان فيها النصر عند حصن بابليون (قصر الشمع) عند جامع عمرو ، ولعبدت هذا الطريق ، طريق الفتح ، وظللته بأشجار الغار ، وكنّفته بالورد والفل ، ولجعلت فى كل قرية وكل بلدة مدرسة باسم عمرو ، تعرف الناس بعمرو ، والدين الذى جاء به عمرو .

إن فتوح المسلمين أعجوبة التاريخ ، ومعجزة الدهر ، ولكن ليس فيها ما هو أعجب من فتح مصر ، فقد حيّر من الوجهة الحربية العسكريين ، وأدهش بنتائجه المؤرخين .

لقد كان جيش عمرو يوم صدم مصر ، أربعة آلاف ، وما أربعة آلاف فى جنب مصر وملك مصر ، ولو أطبق عليهم أهلها بأجسادهم لطحنوهم ، ولو ضاربوهم بالحجارة لقتلوهم ، ولو حصروهم من بعيد لأهلكوهم ، ولكن أربعة آلاف فتحت مصر ، ففتحتها بعبقرية قائدها ، ففتحتها بخلائقها وبإيمانها . ومن كان معه الإيمان لا يقف له شىء .

ولقد فتح مصر من قبله فاتحون ، العرب (الهكسوس) أبناء الجزيرة ، والفرس ، واليونان ، والروم ، فكان فى مصر غالبون ومغلوبون ، غرباء حاكمون ، ومصريون محكومون ، ولبث الفتح ما لبثت القوة ، فلما زالت زال ، وعادت البلاد لأهلها فلما فتحها عمرو ، صارت لقومه إلى آخر الدهر .

ولقد دأب الروم وهم آخر من حكمها عاملين بالترغيب والترهيب ، يستخدمون العطايا والنايا ، لحمل المصريين على مذهب فى النصرانية غير مذهبهم فما استطاعوا . وهم جميعاً أهل دين واحد ، واستطاع عمرو أن يدخلهم بطوعهم ورضاهم فى الإسلام ، فيكونوا هم أهله ، وتكون بلدهم بلده ، وهذه هى طريقة الفاتحين المسلمين ، لم ينقلوا الإسلام إلى البلاد التى فتحوها ، ولكن نقلوا أهلها إلى الإسلام[1] : أراهم فضله ، وأذاقهم عدله ، أعطاهم الحرية فى عباداتهم ، وأعاد لهم بطريركهم بنيامين الذى طرده الروم ، ورفع المظالم عنهم ، ومنع بعضهم أن يستعبد بعضا ، وحفر لهم الخليج فى سنة واحدة ، من النيل إلى البحر الأحمر ، استعملهم فيه بالأجرة لا بالسخرة ، وجعله لهم لا لغيرهم ، فكان للخير والبركات ، لا كقناة السويس التى هى فى أرضنا وليست لنا — فكانت هذه الأعمال خطباً ومحاضرات فى الدعوة إلى الإسلام ، ما سمعها المصريون حتى انقلبوا جميعاً مسلمين ، وكذلك تكون الدعوة : بالأعمال لا بالأقوال .

***

لقد رأيت مرة رواية مسرحية فى جمعية إسلامية مثّل فيها الممثل عمراً . رجلا قبيحاً تعلبياً محتالا يتدسس فى القوم ، ويسترق الأخبار ، ويوقع الشر ، ويتعمد الكذب ، فعلمت أن هؤلاء الذين هداهم الله بعمرو ، لا يعرفون من هو عمرو !

أولا تخبرونى من قال لكم إن عمراً كان بهذه الخلائق ؟ ما الذى غركم بتمثيله ؟

أليس على الممثل أن (يندمج فى دوره) ويفهمه ويستعير روح من يمثله ؟ فهل تستطيعون أن تمثلوا أبا جهل فى فضائل جاهليته ، قبل أن تقدموا على تمثيل عمرو فى عبقرية إسلامه ؟

لقد كان عمرو شريفاً فى الجاهلية والإسلام ، وكان صادقاً صريحاً ، وكان شاعراً فصيحاً ، وكان أبياً عزوفاً لا يرضى بالدنية من عمر ، وهو من هو ، ورد عليه الكلمة بمثلها حين راسله فى أمر خراج مصر ، وكان فقيهاً فى دينه ، أسلم طائعاً مختاراً ، فتوافقت على ورود شرعة الإسلام يومئذ عبقريتا عظيمين من عظماء الناس كلهم لا العرب وحدهم . ومارديْن من مردة القيادة

(١) الكلمة لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وقد كنت عقدت عليها فصلا فى الرسالة فى السنة الماضية .

والحروب ، سيد القواد خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، هداه إلى الإسلام نطق سديد ، لم يدخله فيه طمع ولا طبع ، ولم تدفعه إليه رغبة ولا رهبة ، وكان صادقاً فى إسلامه ، قوياً فى إيمانه ، حتى ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم حطم رب من أرباب الباطل ، فاختاره لهدم سواع ، وأقره على إمارة سرية فيها سادة الإسلام ومشايخه أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، وجعله رسوله إلى ملك عمان ، وأمينه على الصدقات فيها ، وشهد له « أنه من صالحى قريش » ، وقال فيه : « نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله » ونظر إليه عمر ، فقال : « ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميراً » وقال قبيصة بن جابر : « صحبت عمرو بن العاص فما رأيت رجلا أبين قرآناً ، ولا أكرم خلقاً ولا أشبه سريرة بعلانية منه » وكان عمر إذا رأى رجلا عيياً يتلجلج فى كلامه يقول : « أشهد أن خالق هذا وخالق عمرو ابن العاص واحد »[1] .

وكان مشهده يوم بلغه انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الملأ الأعلى ، مشهداً يلين القلوب الجامدة ، وما يفجع ولد بأبيه ، أو محب بحبيبه ، فتكون لوعته عليه ، وحسرته لفقده ، أشد من حسرة عمرو ولوعته .

وكان يوم الردة سيفاً من سيوف الله التى رجعت الإسلام إلى موطنه بعد ما كادت تشرده عنه الخطوب ، وأعز الله به الدين ، وقمع الثائرين . ثم رمى به الصديق الروم ، وقدمه على (من هم أقدم منه سابقة وحرمة)[2] وجعله أحد القواد الأربعة ، فتجلت عبقريته حتى رجع الثلاثة إلى رأيه ، وبلغ الرأى أبا بكر فأقر ما رأى ، وكان فى اليرموك ثانى الأبطال ، بعد نابغة المعارك خالد ، وكان بطل أجنادين ، فضرب الله به أرطبون الروم بأرطبون العرب ، فكان أرجح منه فى الميزان ، وكانت عبقريته أبقى على وجه الزمان ، حتى قال عمر : غلبه عمرو ، لله عمرو !

أما النبل فى سلائقه ، والسمو فى خلائقه ، وقوة جنانه ، وفصاحة لسانه ، فاسألوا عنها كتب الرجال ، فما يتسع لها المقال .

***

(١) تخريج الأحاديث فى الإصابة لإمام الحفاظ ابن حجر

(٢) من كلام أبى بكر له فى وصيته العجيبة التى تشهد لنا أننا نحن أهل البطولة وأهل الحضارة لا هؤلاء الغربيون !

هذا هو عمرو وما عرفتموه ، قرأتم ما كذبه عليه المؤرخون يوم التحكيم ، ولم تقرأوا الحقيقة التى رواها المحدثون[1] وهم أوثق نقلا ، وأصدق قولا ، وسمعتم أنه من دهاة العرب ، فحسبتم الدهاء لا يكون إلا بالكذب والاحتيال والدس والوقيعة . لا يا سادة إن من تخرج فى مدرسة محمد ، وكان رسول رسول الله ، لا يكون دساساً ولا كذاباً ، « إن المؤمن لا يكذب » ، هكذا قال الرجل الذى قال : « ابنا العاص مؤمنان عمرو وهشام »[2] محمد رسول الله !

هذا هو عمرو . أى فاتح صنع مثلما صنع عمرو ؟ أى قائد كان أعظم بركة فى ظفره من عمرو ؟ أى مصلح كان أبقى أثراً فى إصلاحه من عمرو ؟

إنه ما شهد فى مصر مسلم أنه لا إله إلا الله ، ولا قام متبتل فى صلاة ، ولا قعد واعظ فى مصلاه ، ولا قاض إلى منصته ، ولا مدرس إلى أسطوانته ، ولا عمل مصرى من خير إلا وعمرو شريكه فى ثواب عبادته ، لأنه السبب فى هدايته ، ومن سن سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة !

عمرو بنى جامع ابن طولون ، وشاد الأزهر ، وعمر هذه المدارس ، وأقام هذه المساجد ، وأنشأ كل مظهر للاسلام فى مصر . ما كان لولا عمرو !

عمرو هو الذى رد براية الشرق فى عين جالوت ، وبراية الشمال فى المنصورة ، وكان له فضل كل نصر ، كتبه الله للاسلام فى مصر !

هذا هو عمرو ، فهل تلبى مصر فى إصلاح جامعه دعوة الأمير ؟ وهل أعيش حتى أرى هذه البقعة أزهى بقعة فى مصر وأبهاها ، يعمر فيها الجامع حتى يصير أزهر ثانياً ، وهو (كان) أول أزهر فى مصر . تمتد من حوله الشوارع الفساح ، والحدائق والجنات ، وترجع هاتيك المآثر ظاهرة ، ومن حولها القصور العامرة ، ومنازل الكبراء ، ومراكز الجمعيات الإسلامية ، والمفوضيات العربية .؟

هل ترجع للفسطاط عهودها الخاليات ؟

على الطنطاوى

(١) انظر الغواصم والعواصم للقاضى أبى بكر ابن العربى

(٢) الاستيعاب للحافظ الأندلسى ابن عبد البر